(٣٤)

صورة شاملة
لسورة (يس)
من التفسير الموضوعي

العدد (١٠٠) ربيع الآخر (١٣٩٣هـ) مايو (١٩٧٣م)

لن نحتاج إلى كبير عناء في استبانة الخيوط الخفية التي تشد أجزاء هذه السورة وتجعل من معانيها وأغراضها كيانًا متماسك الحقائق وضيء الملامح.

بدأت السورة بقسم جليل .. قسم بما في الدليل من دقة وحكمة على صدق الدعوى ووجاهة صاحبها! ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢، ٣، ٤).

إن القرآن هو الشاهد الثقة على أن محمدا حق.

وما تضمنه القرآن من حكمة بالغة حجة فوق الريب على أنه وحي من السماء، وأن الذي يتلوه مصدق الدعوة راشد الطريق.

ثم تضمنت السورة تمهيدًا وجيزًا عن مواقف الناس من هذه الرسالة وانقسامهم بين مؤيد ومعارض وليس ذلك عجبًا.

فالناس من قديم الزمان صنفان.. صنف يحتبس في المواريث الفكرية التي آلت إليه لا يعدوها ولا يحب أن يستخرجه أحد مِنْ نطاقها، وصنف آخر مرن التفكير، حر الوجهة يعطي نفسه حق المقارنة والترجيح ثم ينطلق بعدئذ على ما أحب.

ومن الصنفين جميعًا كان الكافرون والمؤمنون.

وعقب هذا التمهيد ثلاثة مشاهد متميزة استغرقت السورة كلها، ودارت على محور واحد هو إضاءة الطريق أمام السائرين، وسط الأدلة التي تدعم

الحق، وتذيب التعصب للباطل وتبني الإسلام على أصوله العتيدة من حركة العقل، ووعي التجارب، واحترام الفطرة..

- المشهد الأول دليل تاريخي من الماضي البعيد يقص نبأ القرية التي قاومت المرسلين وكذبت تعاليمهم فأصابها ما أصابها.
- والمشهد الثاني دليل من الحاضر المحسوس يلفت النظر إلى آيات الله في البر والبحر والفضاء، ويرجع البصر بين فجاج الأرض وآفاق السماء كي يستخلص العبر الدالة على رب العالمين.
- والمشهد الثالث والأخير: دليل من المستقبل الآتي يؤكد للبشر أن لعالمهم الذي يعيشون فيه أجلا ينتهي إليه، وأن وراءه عالمًا آخر يسعد فيه المهذبون العقلاء ويشقى فيه من سفه نفسه، وحقر عقله، وأساء سيرته، وفقد شرفه.

من التمهيد الذي افتتحت به هذه السورة الكريمة ومن تلك البراهين الثلاثة المستمدة من الماضي والحاضر والمستقبل تكونت «يس».

ونستطيع أن نلمح الروابط بين أول السورة وآخرها إذا ما أعدنا قراءتها متدبرين حال العرب الذين فوجئوا ببعثة محمد يدعوهم إلى توحيد الله وحمل الرسالة التي اصطفاهم الله لها ومتدبرين كذلك الأدلة المثيرة المتلاقية كلها على أن الله حق، ونبيه حق، وهي أدلة كانت ولا تزال تهدي الحيارى في كل زمان ومكان.

فلنعد مرة أخرى إلى التمهيد وما بعده.

إن ناسا كثيرين يحيون داخل فكرة ثابتة سيطرت عليهم دون بحث أو نقاش..

والسجناء في أوهامهم ينظرون يمينًا ويسارًا فلا يرون إلا السدود التي احتبسوا فيها والأحوال التي عاشوا في ضيقها وجهلوا ما وراءها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ (٨، ٩).

والأغلال التي تحيط بالرجل العتيد وتجعله يعجز عن لي عنقه هنا وهناك في حركة حرة يبصر بها شتى المناظر والأوضاع.. هذه الأغلال من صنع نفسه ابتداء وما ضاعفها الله عليه إلا لأنه هو يريد استبقاءها كما قال جل شأنه في سورة أخرى:

﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا ﴾ (**مريم**: ٧٥).

ويستطيع أي امرئ أن يخرج من ذلك السجن الظلوم إذا رحم نفسه وخشي ربه وعرف الحكمة من محياه ومماته.. إنه عندئذ يؤمن بالله ويهتدي بوحيه، وذلك ما بدأت الأدلة تتساق لتحقيقه.

فلنقف قليلًا عند المشهد الأول منها وهو الذي يبدأ بقوله تعالى:

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ (١٣).

لقد كذب أهل القرية رسالات السماء تقريبًا كما فعل أهل مكة وقالوا لرسلهم ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ (١٥).

وماذا يملك الأنبياء للناس؟ إنهم لا يحملون عصا يسوقون بها الجماهير، ولكنهم يملكون قدرة على الإقناع وتجلية الحقائق لذلك قالوا: ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (١٧).

بيد أن العميان يكرهون الضوء، وما كان عليهم من بأس لو تركوا رسل الله يتكلمون بما لديهم فمن ارتضى منطقهم دخل فيه وإلا انصرف عنه؟

إن أهل القرية لم يفعلوا ذلك بل قالوا لهم﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (١٨).

وأقبل من بعيد رجل منصف لم يذكر القرآن اسمه ليكون أسوة للرجال

الذين إن حضروا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا.. الرجال الذين يعملون بعيدًا عن الشهرة والظهور.

وتحدث الرجل حديث العقل ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (٢٢) ما دام الله هو الذي خلق وما دام المرجع إليه فما معنى البعد عنه والتجهم لهداه؟ ولمن أذهب؟ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ (٢٣، ٢٤).

وذهب الرجل ضحية الإيمان الذي أعلنه وشرح أسبابه.. ويبدو أنه كان عميق الإخلاص لقومه شديد الرغبة في هدايتهم فلما استقبلته بشاشة النعمة والرضوان تمنى لو أن قومه يعلمون ذلك المصير.. ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ (٢٦، ٢٧).

فماذا كانت عاقبة مكذبي الرسل، ومهددي الحريات، ومخرسي صوت العقل؟ هل احتاج الأمر إلى تجريد جيش من السماء لتأديبهم ؟ كلا، يقول الله ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ (٢٨، ٢٩).

كان جديرًا بأبناء آدم أن يعوا هذا المصير وأن يرويه الأسلاف للأخلاف غير أن عبر الماضي تمر دون أن يذكرها الكثيرون ولو استفاد الحاضر من الغابر لتجنب الناس ويلات شتى.

ومع روعة المثلات الأولى فإن الإفادة منها قَلَّت إلى حد أن القرآن الكريم يرسل هذه الصيحة المنددة المفندة ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ (٣٠).

فلنطو هذا المشهد ولنلق نظرة على مشهد ثان في هذه السورة يُعرّف الناس بربهم ويقفهم أمام آياته التي يرونها في الصباح والمساء.

يبدأ هذا المشهد بوصف ما تنبت الأرض.. خذ حفنة من هذا التراب

الذي لا نهاية له في الحقول والحدائق، أترى فيه سكرًا أو دهنًا أو نشا أو أملاحًا أو ألوانًا أو غير ذلك كله مما تحسه وتطعمه في الحبوب والفواكه التي تأكلها؟ كيف خرجت من هذا الطين البارد الجامد شتى الألوان التي تصبغ الثمر والزهر بالصفرة والشقرة؟ وكيف خرجت الطعوم الحلوة من هذا الكدر والقذى؟ ومن لف هذه الحبوب في أغلفتها المحكمة ولف هذه الفواكه في قشورها الزاهية؟ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٣، ٣٤، ٣٥).

ودليل ثان مما يمتد إليه سمع الناس وبصرهم من ترادف الليل والنهار عليهم.. إن انحصارنا في حركاتنا المحدودة يشغلنا عن حركة الفلك الدائر وذلك أننا نصبح ونمسي ونودع شتاء ونستقبل صيفًا دون أن ندري كيف تداولنا الليل والنهار والحر والبرد.

إن ذلك كله نتيجة جريان هائل للكوكب الذي نسكنه والكواكب التي تشرف علينا، وهو جريان مرهوب السرعة في هذا الفضاء الرحب.

ومع أننا نسكن كونًا دوارًا لا يني يسبح في ملكوت شاسع الأبعاد فإن هذا الدوران وذلك السبح محكومان بنظام محيط ملجمان بزمام ضابط ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٤٠) ودليل ثالث من هذه السفن التي تجري في الماء.. يقدر أن الأجسام ترسب وتطفو وفق قانون مدروس مطرد، ومن ثم أمكن صنع سفن في أحجام الجبال تحمل الألوف من الأنفس والقناطير المقنطرة من المتاع ثم تنطلق متهادية فوق اللجج لو شاء ربها أبقاها فوصلت إلى مرافئها سالمة، أو شاء نفخ في الأمواج الحاملة فأرغت وأزبدت ورمت في قاع البحر بما حملت فما يستطيع أحد إسداء عون، ولا إنجاء هالك.

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾(٤٣، ٤٤) ودليل رابع من هذه الأنعام المسخرة لنا ننتفع من محياها ومماتها..

لكن قبل أن نشرح هذا الدليل وغيره ينبغي أن نذكر أن وسط السورة قد قام على معنى محدد معقول، أما المشهد الخاتم للسورة فهو حديث عن البعث والجزاء يبدأ من قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾(٤٨، ٤٩).

ويستمر هذا الحديث إلى نهاية «يس» وربما تخلله من المشهد الثاني ما يلفت العقل إلى آيات الله الجديرة بالنظر كقوله جل شأنه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾(٧١، ٧٢).

إلا أن ذلك الامتداد العقلي لا ينقص من انفراد آخر السورة بكلام مثير عن نهاية العالم وبداية عصر الثواب والعقاب.. فلننعم النظر في المشهد.. إنه ينبئنا بأن أمر الله يأتي مباغتًا والناس مستغرقون في أعمالهم اليومية لا يتوقعون حدثًا ما..

قد يخرج الموظف إلى عمله فلا يبلغ الديوان إلا وقد وقعت الواقعة.. أجل وربما قامت الساعة والخادم ذاهب لشراء بعض السلع فلا يعود بها، وتصوير القرآن لقيام الساعة يوضح أنه يتم والناس مسترسلون في الحديث حول شؤونهم يتجادلون في تقرير وجهات نظرهم وبينما هم كذلك ينفخ في الصور ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٥٠).

حتى الهاجعون في مقابرهم من آماد بعيدة.. إن قومتهم ليوم الحساب تجيئهم مفاجئة حتى ليصيحون دهشين ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ويجيب كل شيء

﴿... هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾(٥٢).

ولا نمضي في وصف النعيم وترغيب المؤمنين فيه ولا في وصف العذاب وترهيب المنحرفين منه، وإنما نتوقف لنتأمل في بعض أدلة البعث التي ختمت بها السورة.

ألم تسأل نفسك يوما: ماذا كنت قبل مائة عام، قبل أن يوجد هذا البدن المكتنز بالشحم واللحم يتوقد فيه هذا الروح المنعم بالفكر والشعور؟ ماذا كنا؟ بعض هذا الهواء المنتشر في الجو؟ بعض هذا التراب الممتد على الأرض؟ لا ندري !

وإذا كان ذلك نسبنا المادي فمن أي أصل تولد الفكرة والشعور؟

إنني أجزم بأني وجدت بعد عدم، وأن هذا الإيجاد يتكرر جيلًا بعد جيل، ومع دلالة هذا الخلق على رب مبدع عظيم، على رب مقتدر حكيم.. مع هذه الدلالة الصارخة فإن هناك صُمّا لا يسمعون وعميانا لا يبصرون وناسًا يتكلم أحدهم عن الله ولقائه بجهل غريب ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴾(٧٧، ٧٨).

وإن الشخص الذي يعرف من أي باب دخل الحياة لا يليق به أن يرسل هذا السؤال، إنه يتناقض مع نفسه حينما يستبعد وجوداً كان هو صورة حية له ودليلًا أبديا على إمكانه..

من يحيي العظام وهي رميم؟ يحييها منشئ الإنسان من نقطة الصفر.. إن البعث ليس وعدًا بشيء يتم في المستقبل فهو يستغرب الآن.. إنه تكرار لعمل يتم كل يوم بل كل ساعة من ليل أو نهار فما وجه الاستغراب في وقوعه؟ ولكنه الجهل الغليظ ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا...﴾(٧٩، ٨٠)

فلنرسل فكرنا وراء هذه اللفتة، هناك في الحقول الناضرة والحدائق

الغناء حيث الصمت السائد والنماء البطيء يتنفس النبات دون أن نشعر وفي شهيقه وزفيره يقول علماء الطبيعة إنه يمسك «الكربون» ويرسل «الأكسوجين» يمسك النار ويرسل لنا الحياة ما أعجب القدرة وما أغرب هذه المتناقضات.

ومضى النظم الكريم يستكمل أدلة البعث، ويشرح دلائل العظمة الإلهية ثم يختم السورة بهذا الختام ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٨٣) هذه سورة «يس»، مقدمة تناولت رسالة محمد بالشرح الوجيز وتناولت معارضيه ومؤيديه بالتعليق اليسير، ثم ثلاثة مشاهد فصلت وجه الحق في هذه الرسالة الخاتمة تفصيلًا تناول العالم من أزله إلى أبده واستطاعت أن تدفع الباطل وتَذْرُوهُ هباء.

هذه هي السورة التي ارتفع صوت الوحي فيها ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (٧٠) ومع ذلك فإن جماهير المسلمين تواضعت على قراءتها في المقابر بين رفات الموتى.

ألا ما أظلم المسلمين لكتاب ربهم، وتراث نبيهم، وأساس تاريخهم، ومهاد حضارتهم!

ولسنا نزعم أن المقدمة والمشاهد الثلاثة المذكورة قد انتظمت في قوالب فنية كما يصنع العلماء المحدثون في تأليفهم، كلا إن القرآن أكبر من ذلك فاحتواؤه على المعاني يشبه احتواء الكون المادي على مصادر المعرفة في وحدة لا انفصام بين أجزائها.

ولكننا في هذا اللون من التفسير نجتهد في اكتشاف محور تدور عليه السورة كلها أو ملامح تشيع في كيانها العام. ثم نصف ذلك للقارئ حتى يحسن الانتفاع بالكتاب الكريم.